الإباء عند العرب قبل الإسلام

The Pride in Pre-Islamic Arab Society

م.م. خالد روكان جاسم
Khalid Rokan Jassim
جامعة تكريت / كلية الآداب
Tikrit University / College of Arts
E-mail: Khalid.rokan@tu.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الإباء، العرب قبل الإسلام، النزاعات القبلية، الحروب الجاهلية، ، الشعر الجاهلي، القيم الاجتماعية.

Keywords: pride, pre-Islamic Arabs, tribal conflicts, pre-Islamic wars, pre-Islamic poetry, social values.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراســـة مفهوم الإباء في المجتمع العربي قبل الإســـلام، وتحليل تأثيره في مختلف الجوانب الحياتية، من القرارات الســـياســـية إلى النزاعات القبلية والعلاقات الاجتماعية. فقد كان الإباء قيمة محورية في تشـــكيل الهوية العربية، حيث انعكس في مواقف الأفراد والقبائل، وتجلى في الشعر الجاهلي والأمثال والحكم، مما يعكس مدى ترسخه في الوجدان العربي.

وخلصـت الدراسـة إلى أن الإباء لم يكن مجرد سـلوك فردي، بل كان مبدأ جماعي يحكم العلاقات الاجتماعية. يوصـــي البحث بإجراء دراســـات مقارنة حول مفهوم الإباء في الثقافات الأخرى، وتحليل تطوره عبر العصـــور، مع التركيز على توظيف هذه القيمة في المجتمعات الحديثة لتعزيز العزة والكرامة دون الوقوع في التعصب أو الصراعات.

Abstract

This research aims to explore the concept of pride in pre-Islamic Arab society and analyze its influence on various aspects of life, ranging from political decisions to tribal conflicts and social interactions. Pride was a pivotal value in shaping Arab identity, as it was reflected in the positions of individuals and tribes, and was manifested in pre-Islamic poetry, proverbs and wisdom, reflecting the extent to which it was rooted in the Arab conscience.

The study concluded that pride was not just an individual behavior, but a collective principle governing social relations. The research recommends conducting comparative studies on the concept of pride in other cultures, and analyzing its development over the ages, with a focus on employing this value in modern societies to enhance pride and dignity without falling into fanaticism or conflicts.

المقدمة

يُعد الإباء من القيم المحورية في حياة العرب قبل الإسـلام، إذ شـكّل جزءًا أسـاسـيًا من هويتهم الثقافية والاجتماعية، وتمثل في رفض الظلم والخضوع، والتمسك بالكرامة والأنفة. لم يكن الإباء مجرد صـفة فردية بل كان مبدأً جمعيًا يوجّه العلاقات داخل القبيلة، ويحدد مكانة الفرد بين قومه، ويؤثر في اتخاذ القرارات، وبناء التحالفات أو خوض الحروب. وقد تجلّى هذا المبدأ في الشعر الجاهلي، والأمثال، والحكم المتوارثة، وعكس مدى رسوخ هذه القيمة في الضمير العربي.

كما اتّخذت المرأة العربية موقفًا واضـحًا في التعبير عن الإباء، رافضـة المهانة والرضـوخ للظروف. وانطلاقًا من أهمية هذه القيمة، يتناول هذا البحث مظاهر الإباء في المجتمع العربي الجاهلي، ويحلل دوره في تشكيل البنية الاجتماعية والسياسية، ويقيّم آثاره الإيجابية والسلبية على الاسـتقرار القبلي، سـاعيًا إلى تقديم قراءة معمّقة لهذه الظاهرة في ضـوء النصـوص الأدبية والتاريخية.

وقد اقتضـت طبيعة الدراسـة تقسـيمها إلى مقدمة وأربعة مباحث، تناول المبحث الأول: مفهوم الإباء عند العرب قبل الإسـلام، بينما تناول المبحث الثاني: تجليات الإباء في الحياة الاجتماعية، أما المبحث الثالث فقد تناول الإباء في الشـعر والأدب الجاهلي، وقد خصـصـنا المبحث الرابع لدراسة أثر الإباء في المواقف السياسية والقبلية، واختتمت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم الإباء عند العرب قبل الإسلام

أولًا: معنى الإباء

الإباء هو الامتناع عن قبول شـيء ما أو رفضـه، ويشـير إلى الترفع والكبرياء، حيث يمتنع الإنسـان عن كل ما يراه مُهينًا أو غير لائق به. يُقال: أَبى فلانٌ الشـيءَ أي امتنع عنه ولم يرضَ به، وهو ما ورد في لسان العرب حيث عُرّف بأنه الامتناع. كما أن الإباء هو ترفُّع بكبرياء، وامتناع المرء عن الدنايا وما يضيمه، مما يؤكد ارتباطه بالشرف والعزة. (ابن منظور، ١٤١٤ هـ، ٣/١٤).

وفي وُصـف الرجل الأبيّ بأنه ذو إباء شـديد، أي أنه لا يقبل الضـيم أو الذل، وهو ما يتكرر في جمهرة اللغة(أبو منصـور، ٢٠٠١م ، ٤٣٤/١٥) حيث يُقال أَبَى الرجلُ يأبَى إباءً فهو آبٍ وأبيّ. كما يوضح(الأزدي، ١٩٨٧م ، ١٠٣٠/٢) أن الفعل أَبَيْتُ الشـيءَ يُستخدم عندما ينفر الإنسان من شيء فيرفضه، وهو ما يعكس الامتناع القائم على الإرادة القوية. (الأزدي، ١٩٨٧م، ٢/ ١٢٦٦).

ويؤكد لسان العرب أن أَبَى الشيءَ يَأْباهُ إِباءً وإِباءَةً تعني كرهه وامتنع عنه، مشيرةً إلى أن أشـــد أنواع الامتناع تأتي مع الإرادة والعزم، وهو ما يتفق مع ما ورد في القاموس المحيط (الفيروزآبادى، ٢٠٠٥م ، ٣١٥/٤) الذي يُفســـر الإباء بأنه رفضٌ نابع من عدم القبول التام للشيء ومن الاستخدامات الخاصة للإباء حيث يُقال: أَبِيَ التَّيْسُ أي امتنع عن فعل شيء بفعل النفور أو الاشمئزاز، مما يدل على أن الإباء قد يكون غريزيًا في بعض الحالات, أما من الناحية اللغوية، فقد أشير إلى أن المصدر الإباء يأتي على وزن فعال، وهو الوزن المستخدم للدلالة على الصفات التي تدل على شدة الفعل واستمراره،(الرازي، ١٩٧٩م ، ٤٥/١) وبذلك يتضح أن الإباء في اللغة يعبر عن الامتناع المصحوب بالعزة والكرامة، وهو صفة يمتاز بها من يرفض الخضوع أو القبول بما لا يتناسب مع مبادئه.

ثانيًا: مكانة الإباء في المجتمع الجاهلي

عاش المجتمع العربي الجاهلي في بيئة قاحلة تفتقر إلى موارد العيش الوفيرة، حيث كان شح الماء والزرع وقلة الضرع واقعًا يوميًا، لكنه عوّض هذا الفقر المادي بأعظم ما يمكن أن يثري النفس ويسعدها، وهو الحرية والإباء، فقد حرمت الطبيعة القاسية العربي من وسائل الترف التي نعم بها المتحضـــرون، لكنه وجد في حريته ما يفوق كل متاع مادي، فكان يعيش في الصـــحراء طليقًا كالهواء، حرًا كالنسر، أبيًا كالأُسْد، صلب العزيمة كالصخر، منبسط النفس كامتداد الرمال، نقي المشاعر كالشمس المشرقة والقمر الساطع. لقد كان العربي بطبيعته عاشقًا للحرية، رافضًا للضيم، مستعصيًا على الذل، لا يقبل الهوان ولا يرضى بغير الكرامة سبيلًا لحياته.(الحوفي، ٢٠١٦م ، ص٢٧٩).

المبحث الثاني: تجليات الإباء في الحياة الاجتماعية

أولًا: الإباء في السلوك الشخصي

يظهر من مطالعة الشعر العربي القديم مدى اعتزاز العربي بنفسه، وتمسكه بالإباء وعزة النفس، فهو يرفض الضيم والظلم، ولا يتقبله على نفسه ولا على غيره، إذ لا يرضى بالذل إلا من انعدمت كرامته وضعفت همته، فيصبح عاجزًا لا يُرتجى منه دفع ملمة أو القيام بمسؤولية، ومن يقبل الضـــيم يشـــبه مطايا القوم التي يمتطيها الجميع بلا اعتراض، أو وتد الخيمة الذي يتلقى الضرب دون مقاومة، وهذا ما عبّر عنه المتلمس الضبعي بقوله(حسين، ١٤٣١هـ ، ٤٢/٥).

ولا يُقيمُ على ضيمٍ يُراد به إلا الأذلانِ عِيْرُ الحيّ والوَتَدُ

ويؤكد عنترة أن العيش في ظل العزة ليوم واحد خير من ألف عام في الذل، إذ يقول: فَعَيشُـــكَ تَحتَ ظِلِّ العِزِّ يَوم / وَلا تَحتَ المَذَلَّةِ أَلفَ عامِ، فالعربي يعتبر الضـــيم عارًا، ويحرص على حماية سمعته من المهانة، كما أشار السمؤال:

إذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ / فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ.

فهو بطبعه كريم المعشر، لا يتحول إلا إذا مسه ظلم أو إهانة، كما قال عنترة:

سمح مخالطتي إذا لم أُظلمِ فإذا ظُلمت فإن ظلمي باسلٌ.

وكان عمرو بن كلثوم خير مثال للعربي الأبيّ، إذ رفض إهانة أمه وقتل ملك الحيرة دفاعًا عن كرامتها، مسجلًا موقفه في معلقته الشهيرة:

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِيْنَا.

ولأن العربي يعشق الحرية، فهو يرفض القيد والسلطان عليه، وإذا مست كرامته، هجر موطنه، كما قال الشنفرى: وَفي الأَرضِ مَنأى لِلكَريمِ عَنِ الأَذى. فالإباء عند العرب لم يكن مجرد موقف، بل جوهر وجودهم، يحيون به ويموتون دونه (حسين، ١٤٣١هـ ، ٤٢/٥).

كما تمتاز شخصية العربي بالقوة والاستقلالية، حيث تغلب عليها النزعة إلى الحرية وحب الذات، والسعي وراء الجاه والذكر الحسن والتحلي بالصفات الحميدة, كما تتجلى قوته في قدرته على الصبر والتحمل، إذ نشأ في بيئة قاسية فرضت عليه مواجهة الفقر والجوع والعطش، والتكيف مع طبيعة الصحراء العاتية, فقد أكسبه لهيب الشمس لونًا أسمر، وجلدًا يابسًا، وقوامًا خفيف اللحم، وملامح حادة كعيون سوداء وشعر داكن، كما صقلته الصحراء بقسوتها فجعلته يقظ الحواس، حاد السمع والبصر، سريع التأثر، متوتر الأعصاب، مستسلِمًا لقضاء الله وقدره وقد علّمته قسوة الحياة الصحراوية فنون الغزو والترحال بحثًا عن الماء والكلأ، فصار فارسًا شجاعًا لا يهاب المخاطر، وكريمًا مضيافًا، يكرم الضيف، ويحمي الجار، ويغيث الملهوف, ولأن الترحال كان أسلوب حياته، فقد أدرك حاجته إلى من يستضيفه في غربته ويحميه في ضعفه، مما عزز لديه قيم الضيافة وإجارة المستغيث، حتى أصبحت من أهم مبادئه التي يفخر بها, فلم يكن العربي يرى شرفًا أعظم من كرم الضيافة، ولا عارًا أشد من التفريط في حماية جاره أو الامتناع عن إغاثة من يحتاج إليه، فكانت هذه القيم جزءًا أصيلًا من هويته وشخصيته. (البستاني، ٢٠١٢م ، ص١٨).

ثانيًا: الإباء في العلاقات القبلية

كان الانتماء القبلي حجر الأساس في حياة العرب قبل الإسلام، حيث تجلت العصبية القبلية كمظهر رئيسي لهذا الانتماء، مستندةً إلى روابط الدم ووحدة المصير والهدف داخل القبيلة، وقد ترسخت العصبية في الوجدان الجاهلي، وبرزت بوضوح في الشعر الذي عكس قيمها ومبادئها، ولم تقتصر العصبية على مجرد الانتماء، بل تطورت إلى وعي أخلاقي وإنساني سعى إلى تحقيق التوازن بين القوة ومعاييرها، وبين الحقيقة وثقافتها، مما جعلها أحد المرتكزات

الجوهرية في الحياة الجاهلية، رغم ما يغلب على هذه الحقبة من صور الحروب والصراعات. (الدوري، ١٩٨٥م ، ص٢١).

استندت العصبية القبلية على رابطة الدم، واتخذت الثأر وسيلة للحفاظ على تماسكها، فكانت القبيلة تتحرك بكاملها للدفاع عن أفرادها والثأر لمظالمهم، حتى وإن أدى ذلك إلى اندلاع حروب طويلة، وفي المقابل، فرضت القبيلة التزامًا صارمًا على أفرادها، حيث لم يكن يُسمح بالخروج على تقاليدها.(دلو، ١٩٨٩م، ص١٥٣).

مما سبق يتضح أنه لعبت التحديات البيئية والتاريخية دورًا محوريًا في تشكيل البناء الاجتماعي للمجتمع الجاهلي، حيث فرضت ظروف الجدب والقحط وندرة الأمطار نمطًا اجتماعيًا موحدًا يقوم على النظام القبلي، فكانت الرابطة القبلية هي الركيزة الأساسية التي شكلت هوية العرب في العصر الجاهلي، وأصبحت استراتيجية رئيسية في تنظيم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

تمثلت هذه الرابطة في العصبية القبلية، التي شكلت أساس الحياة الاجتماعية، حيث مثلت القبيلة كيانًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا موحدًا، وكانت المرجعية العليا التي تستند إليها الشرعية الأخلاقية، إذ كان الحق والخير يُقاسان بمصلحة القبيلة وأفرادها, ولم تكن هذه البنية الاجتماعية نتاجًا عشوائيًا، بل فرضتها طبيعة البيئة الصحراوية، التي لا تتسع للتجمعات الكبيرة، مما جعل من القبيلة الوحدة الأكثر قدرة على التنظيم والبقاء, وقد ساعدت هذه البنية على تحقيق التماسك بين الأفراد، إلى جانب توفير القدرة على التنقل والتكيف مع التحديات المختلفة (دلو، ١٩٨٩م ، ص ١٥٣).

ونتيجةً لذلك، أصبحت القبيلة الوحدة السياسية الأساسية في المجتمع الجاهلي، وأدى الجفاف أو النزاعات إلى تكوين تحالفات بين القبائل، أو انقسامات داخلها، لكن رغم ذلك، ظل المجتمع العربي متمسكًا بالتركيبة القبلية بوصفها أساس البنية الاجتماعية. (دلو، ١٩٨٩م ، ص ١٥٣).

لم تكن القبيلة تسمح لأفرادها بالخروج عن نظامها الصارم أو التمرد على مرجعيتها، مما أدى إلى ظهور نظام الخلع، وهو أحد أشد العقوبات القبلية، حيث يُطرد الفرد الذي يرتكب جنايات تجلب العار أو الضرر لقبيلته, وكان إعلان الخلع يتم إما داخل القبيلة أو في الأسواق العامة، مما يعني حرمان الخليع من الحماية القبلية, وبعد طرده، كان لديه خياران: إما اللجوء إلى قبيلة أخرى للحصول على الحماية، أو الانضمام إلى الصعاليك، وهم مجموعة منبوذة من خارج النظام القبلي, ويُعد الخلع أقسى أشكال النفي الفردي، إذ يهدف إلى الحفاظ على مصلحة القبيلة العليا والتزاماتها الأخلاقية، مما يضمن بقاء توازن القوى داخل المجتمع القبلي وقد لعبت

القبيلة دورًا محوريًا في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث تحولت العصبية القبلية من مجرد رابطة دم إلى وعي عاطفي واجتماعي وأخلاقي، أصبح يشكل وجدان الفرد ويحدد انتماءه النفسي والاجتماعي, وقد عبّر الشاعر الجاهلي عن هذا الوعي العصبي من خلال شعره، حيث تجسدت ذاته الفردية ضمن الإطار الجماعي للقبيلة، فامتدت كلماته لتتجاوز حدودها وتمس قضايا إنسانية أوسع. (حسام الدين، د.ت، ص ٨٧).

المبحث الثالث: الإباء في الشعر والأدب الجاهلي

أولًا: الإباء في الشعر الجاهلي

من آثار الشعور العميق بالحرية والإباء أن العربي ملأ الصحراء فخرًا بقوته وسلاحه، فلا يفخر بالقوة إلا من كان حرًا بحق, فقد كان يجد في هذا الفخر إرضاءً لكبريائه، كما أنه كان وسيلته لبث الرهبة في قلوب أعدائه, وقد تجسد هذا الشعور في مواقف عديدة، منها ما عبر عنه جابر بن حُبَيب التغلبي حين وبخ الملوك الذين لا يخشون رعاياهم ولا يتورعون عن انتهاك حرماتهم، ظنًا منهم أنهم لن يواجهوا انتقامًا, لكنه يؤكد أن قومه لا يسالمون إلا من عدل في حكمه، أما إذا جار وظلم، فإنهم لا يترددون في قتله، إذ لا يعدّون قتل الملوك أمرًا محرمًا أو مستحيلًا، بل يعتبرون أنفسهم ندًّا لهم في القوة والشرف, وقد صور ذلك في أبياته(الحوفي، ٢٠١٦م ، ص ٢٧٩)

ألا تستحي من الملوك وتلقي محارمنا، لا يُسألُ الدمُ بالدمِ

تعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمُحرَّمِ

وقد كان العربي بطبيعته أبيَّ النفس، يفضل الموت على حياة الذل، فلا يرى للعيش معنى إن كان في ظل قهر أو استعباد، وإذا قبل أحدهم بالضيم، استُصغر شأنه، وعُومل كما يعامل الحمار الذي يُقاد بلا إرادة، ومن هنا كان شعار العربي هو التمسك بالعزة والإباء، كما عبّر عن ذلك عمرو بن بُراقَة(شيخو، ١٨٩٠م، ٢/ ١٩٠):

متى تجمع القلب الذكي وصارمًا وأنفٍ أحمدَ ما تجتنبه المطامعُ

وفي سياق هذا الشعور القوي بالحرية، يمكن القول إن العرب قبل الإسلام فهموا الحرية فهمًا مطلقًا، وكان لهذا الفهم آثار إيجابية وأخرى سلبية، فمن أبرز سلبياته ما ظهر بعد وفاة الرسول ﷺ، حيث ارتدت بعض القبائل عن الإسلام، رافضةً الانصياع لحكم أبي بكر الصديق(رضي الله عنه)، وامتنعوا عن دفع الزكاة، معتبريها إتاوةً لا حقًّا دينيًا، غافلين عن حكمتها وأثرها الاجتماعي والسياسي والديني.(حسين، ١٩٨٩م، ص٨٨).

بناءً على ما سبق ذكر يتضح أنه قد أدى التفاعل بين العصبية القبلية، القائمة على روابط الدم، وبين الوعي الفردي الذي يحمل مضمونًا أخلاقيًا، إلى جعل الشاعر الجاهلي أكثر وعيًا بإنسانيته وأكثر حساسية في بحثه عن مثل عليا تحقق التوازن في حياته. فبينما كانت الصراعات على الحمى ومشاهد الحروب تهدد استقرار الحياة الجاهلية، ظل الشاعر يسعى لإيجاد معانٍ تتجاوز الصراع، تعكس التوتر القائم بين النزعة القبلية والانتماء الإنساني الأشمل.

ثانيًا: الإباء في الأمثال والحكم

احتلت الحرية والإباء مكانة بارزة في فكر العرب العصر الجاهلي، حيث انعكست هذه القيم في أمثالهم وحكمهم التي سجلت مواقفهم تجاه الكرامة، والاستقلالية، ورفض الخضوع, فقد كان العربي يرى أن حريته هي أثمن ما يملك، ولا يفرط بها مهما كان الثمن، فكانت حكمهم وأمثالهم تمجد العزة والإباء، وتعبر عن نزوعهم إلى الاستقلال وعدم الرضوخ للذل, ومن الأمثال التي تعكس هذا المبدأ قولهم: "الحرّ لا يأكل ببطنه"، وهو مثل يُضرب للدلالة على أن الإنسان الحر لا يقبل الاستجداء أو طلب العون بوسائل مهينة، بل يعتمد على نفسه في كسب رزقه وصون كرامته.(الماوردي، ١٩٨٦م ، ص ٢٤٦)

كما قالوا: "تموت الحرة ولا تأكل بثدييها"، وهو تعبير عن شدة اعتزاز الإنسان الحر بنفسه، واستعداده للموت على أن يفرّط في كرامته أو يطلب الرزق بوسائل لا تليق به. ومن الأمثال التي تجسد رفض الذل والاستعباد قولهم: "رُبَّ نفسٍ أبيةٍ تأبى المذلة"، وهو مثل يعبّر عن أن بعض النفوس تأبى الذل بطبيعتها، وتفضل الموت على العيش في مهانة, وكانوا يعتبرون الإباء والحرية جوهر الحياة الكريمة، لذا قالوا: "عش عزيزًا أو مت كريمًا"، وهي حكمة تعكس مبدأ أساسيًا في حياتهم، حيث كانوا يفضلون الموت على العيش في ظل المهانة والاستعباد، كما قالوا: "الحر تكفيه الإشارة"، مما يعكس وعيهم بقيمة الاستقلالية الفكرية ورفض التبعية العمياء، حيث يُفهم الحر بالإشارة ولا يحتاج إلى التوجيه والإلزام. (الزمخشري، ١٩٨٧م ، ١٤٦/١).

أما في سياق العصبية القبلية، فقد كانوا يقولون: "أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب"، وهو مثل يجسد قوة الانتماء القبلي التي كانت جزءًا من مفهوم الإباء لديهم، حيث كان العربي يعتز بقبيلته ويرفض الاستقواء بالغرباء عليها. كما قالوا: "الحر من راعى وداد لحظة"، تأكيدًا على قيمة الوفاء التي كانت من معاني الإباء، إذ كان العربي يرى في الحفاظ على العهود جزءًا من شرفه وكرامته(النيسابوري، د.ت ، ١/ ٧٢).

وبذلك، شكلت الأمثال والحكم عند العرب قبل الإسلام سجلًا حيًا لمبادئهم، حيث كرست قيم الإباء، والحرية، والكرامة، التي ظلوا متمسكين بها كجزء من هويتهم الثقافية والاجتماعية.

المبحث الرابع: أثر الإباء في المواقف السياسية والقبلية

أولًا: دور الإباء في اتخاذ القرارات السياسية

لعبت قيمة الإباء، دورًا محوريًا في تشكيل القرارات السياسية والعلاقات بين القبائل في المجتمع العربي قبل الإسلام، فقد كانت هذه القيمة مقياسًا لمكانة الفرد والقبيلة داخل المجتمع، حيث كان الزعماء يتمتعون بمكانة عالية نتيجة لتمسكهم بهذه القيم (جوادي، ٢٠٠٢م، ص ١٣٤).

وفي المجتمع الجاهلي، كانت الزعامة القبلية تعتمد بشكل كبير على الصفات الشخصية للفرد، مثل الشجاعة، الكرم، والقدرة على حماية القبيلة، وكان الزعماء الذين تمتعوا بصفات الإباء يحظون باحترام وتقدير كبيرين، مما عزز من مكانتهم وسلطتهم داخل القبيلة، ويدل على ذلك موقف هاشم بن عبد مناف، الذي استطاع بفضل شخصيته القوية وكرامته أن يعقد اتفاقات تجارية مع القبائل الأخرى، مما زاد من نفوذ قريش(علي، ٢٠٠٣م ، ص ١٧٧).

كما أن قيمة الإباء جعلت بعض الزعماء يرفضون الانصياع لأعدائهم، حتى لو كلفهم ذلك حياتهم, ومن الأمثلة على ذلك موقف زهير بن جناب الكلبي، وهو خطيب قبيلة بني قضاعة وشاعرها وفارسها وسيدها ومبعوثها الى ملوك الجاهلية, كان يسمى الكاهن لصحة رايه والذي كان يُعرف بعزته وكرامته، وكان مستعدًا لخوض المعارك دفاعًا عن شرف قبيلته، مما أكسبه احترام القبائل, ولاه ابرهة الحبشي على بكر وتغلب حيث اصابها قحط وجدب فطلب منهم زهيراً ان يؤدوا الخراج فابوا فقاتلهم فربه احدهم ضربة ظنوا انه قتل فيها فتظاهر بالموت الى ان رحل سراً الى قومه فجمع جيشاً من اليمن واقبل على بكر وتغلب ففعل فيهم الافاعيل. (ابن عساكر, ١٩/١٠٠). ولم تقتصر قيمة الإباء على الأفراد فقط، بل كانت تنعكس على سلوك القبائل ككل، فالقبائل التي تبنت هذه القيمة سعت دائمًا للحفاظ على كرامتها وسمعتها، مما أثر على طبيعة العلاقات مع القبائل الأخرى، في كثير من الأحيان، كانت النزاعات تنشأ بسبب شعور قبيلة ما بأن كرامتها قد أُهينت، مما يدفعها للرد حفاظًا على مكانتها (علي، ٢٠٠٣م ، ص ١٧٧).

وفي المقابل، ساهمت هذه القيمة في بناء التحالفات بين القبائل، حيث كان الاحترام المتبادل للكرامة والعزة أساسًا لعقد الاتفاقيات بين القبائل المتنافسة، ومن الأمثلة على ذلك الحلف الذي عُرف بـ"حلف الفضول"، والذي أُسس على مبادئ نصرة المظلوم وإعلاء قيمة العدل والكرامة.

ثانيًا: الإباء في الحروب والنزاعات

كان الإباء أحد المحركات الأساسية للحروب والنزاعات القبلية عند العرب قبل الإسلام، حيث شكل دافعًا رئيسيًا للصراعات التي امتدت لعقود طويلة، ارتبطت النزعة القتالية عند العرب بالكرامة والأنفة، فكانوا لا يقبلون الضيم ولا يرضون بالإهانة، مما جعل أي اعتداء، ولو كان

بسيطًا، سببًا في اندلاع الحروب بين القبائل، وقد تجلى ذلك في العديد من النزاعات التي قامت بسبب الثأر والاعتزاز بالكرامة، حيث لم يكن العربي يرى في التفاوض خيارًا مقبولًا إذا مس الأمر شرفه أو شرف قبيلته.(الدوري، ١٩٨٥م ، ص ٤٥)

كان الإباء عند العرب مرتبطًا بالمفاهيم القبلية التقليدية مثل العصبية والنخوة وحماية الجار، فكان أي انتقاص من كرامة الفرد أو القبيلة يُعد مبررًا كافيًا لاستخدام القوة ورد الاعتبار بالقوة ذاتها، بغض النظر عن النتائج، وقد كانت النزاعات تتخذ طابعًا طويل الأمد، حيث كان الثأر ينتقل بين الأجيال، مما زاد من حدة الصراعات واستمراريتها، وكان العربي يفضل الموت في ساحات القتال على أن يعيش في مذلة أو يُتهم بالجبن، وهذا ما عبّر عنه الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد في قوله:

لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

وقد كانت هذه القيم تدفع بعض القبائل إلى شن الحروب حفاظًا على هيبتها بين القبائل الأخرى، حيث كان التراجع عن القتال يُفسر على أنه ضعف، وهو ما لم يكن مقبولًا في المجتمع الجاهلي الذي يمجد القوة والإباء.

وهناك نماذج تاريخية لمواقف الإباء في الحروب:

١. حرب البسوس: تُعد هذه الحرب من أبرز الحروب التي اشتعلت بسبب الإباء والعزة، حيث اندلعت بين قبيلتي بكر وتغلب بعد أن قتل كليب بن ربيعة ناقة البسوس بنت منقذ، مما أدى إلى تصعيد النزاع بين القبيلتين واستمراره لأكثر من أربعين عامًا، كان الإباء والتمسك بالثأر من العوامل التي أبقت الحرب مشتعلة رغم محاولات الصلح. (اللامي، ٢٠٢٤م ، ص١٩٤).
٢. حرب داحس والغبراء: نشبت بين قبيلتي عبس وذبيان بسبب الغدر في سباق للخيل، حيث رأى قيس بن زهير العبسي أن الغدر به يعد انتقاصًا من كرامته وكرامة قبيلته، مما دفعه لخوض الحرب لاسترداد حقه، واستمرت لعقود طويلة بسبب الثأر والعصبية القبلية.(ابن عبد ربه, ٣٢٨هـ,١٧/٦).
٣. موقف عمرو بن كلثوم: يمثل عمرو بن كلثوم نموذجًا آخر للإباء، حيث قتل ملك الحيرة عمرو بن هند بعدما حاول إذلال والدته، مؤكدًا بذلك أن العربي لا يقبل المساس بكرامته أو كرامة أهله، حتى لو كان ذلك يعني قتل ملك في قصره.(السليمان,١٦٥/١).

كان الإباء دافعًا رئيسيًا للصراعات القبلية عند العرب قبل الإسلام، حيث لم يكن التنازل عن الكرامة خيارًا مقبولًا، وقد أدت هذه النزعة إلى اندلاع حروب طويلة مثل البسوس وداحس والغبراء، وساهمت في تشكيل الهوية القتالية للعرب، وعلى الرغم من أن هذه القيم عززت من روح التضحية والشجاعة، إلا أنها ساهمت أيضًا في إدامة النزاعات التي أثرت على استقرار المجتمع العربي في تلك الفترة.

الخاتمة

يُظهر البحث أن الإباء كان قيمة جوهرية في المجتمع العربي قبل الإسـلام، حيث تجلى في مختلف جوانب الحياة، من السـلوك الفردي إلى القرارات السـياسـية والحروب القبلية. لم يكن الإباء مجرد موقف شـخصـي، بل كان سـلوكًا جماعيًا تحكمه الأعراف والتقاليد، وكان مظهرًا أسـاسـيًا للعزة والكرامة. وقد انعكس في الشـعر الجاهلي والأمثال والحكم، مما يعكس عمقه في الوجدان العربي. كما كان الإباء سـببًا في اندلاع العديد من النزاعات، حيث لم يكن العربي يقبل المهانة أو التنازل عن حقوقه، وبناء على ما سـبق توصـل البحث إلى عدد من النتائج المهمة التي تؤكد دور الإباء في تشـكيل المجتمع العربي قبل الإسـلام وقد خلصـت الدراسـة لعدد من النتائج منها ما يلي:

- لم يكن الإباء فإن الإباء لم يكن دائمًا إيجابيًا، فقد أدى إلى استمرار الصراعات والثأر بين القبائل، مما أثر على استقرار المجتمع العربي. رغم ذلك، ساهم في تشكيل شخصية العربي المستقلة، الرافضة للظلم، والساعية للحفاظ على شرفها. كما كان الإباء عاملاً مؤثرًا في بناء التحالفات القبلية، حيث كانت القبائل تحترم من يلتزم بقيم العزة والكرامة.
- وبناءً على هذه الدراسة، فإن الإباء كان عنصرًا فاعلًا في تشكيل هوية العرب قبل الإسلام، حيث لم يكن مجرد قيمة أخلاقية، بل كان قاعدة تنظم العلاقات الاجتماعية والسياسية، وتحدد طبيعة التفاعلات بين الأفراد والقبائل، مما جعله ركنًا أساسيًا في الثقافة العربية القديمة.
- الإباء لم يكن سلوكًا فرديًا فحسب، بل كان مبدأً جمعيًا تحكمه الأعراف، وتؤطره القيم القبلية، وكان معيارًا أساسياً لكرامة الأفراد والقبائل.
- ساهم الإباء في تمجيد العزة والشرف، وظهر بوضوح في الأدب الجاهلي وخاصة في الشعر، حيث تغنّى الشعراء بالأنفة والكرامة ورفض الضيم، وجعلوا من هذه القيم أساسًا لبطولاتهم.
- كان للإباء تأثير مباشر في اندلاع الحروب القبلية، مثل "حرب البسوس" و"داحس والغبراء"، بسبب رفض الإهانة أو الشعور بالانتقاص من الكرامة، مما أدى إلى استمرارية الثأر والصراع.
- تعدى الإباء الذكور ليشمل النساء، حيث أظهرت المرأة العربية قبل الإسلام مواقف كثيرة في رفض الظلم، والمطالبة بحقوقها، والتمسك بعزتها وكرامتها.
- رغم أن الإباء عزّز من قيم الشجاعة والوفاء، إلا أنه ساهم أيضًا في تعميق النزاعات وتفكيك وحدة القبائل، وأعاق نشوء أي كيان سياسي موحد للعرب قبل الإسلام.
- أظهر البحث أن الإباء كان سببًا لبناء تحالفات قبلية تقوم على الاحترام المتبادل والهيبة، وكان مرتبطًا بقيم أخرى مثل الكرم والنخوة، مما جعله ركنًا أخلاقيًا متجذرًا في الشخصية العربية القديمة.

المصادر والمراجع.

أولاً: المصادر.

الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت: ٣٢١هـ). (١٩٨٧م). جمهرة اللغة. ط١. دار العلم للملايين. بيروت.

الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ). معجم مقاييس اللغة. د.ط.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ). (١٩٨٧م). المستقصى في أمثال العرب. ط٢. دار الكتب العلمية . بيروت.

الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ). (٢٠٠٥م). القاموس المحيط. ط ٨ . مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت . لبنان.

ابن عبد ربه، ابو عمر شهاب الدين احمد بن محمد الاندلسي.(ت: ٣٢٨هـ). العقد الفريد. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله.(ت: ٥٧١). تاريخ مدينة دمشق.ط٢.دار الفكر. بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. (ت: ٧١١هـ) . (١٤١٤هـ).لسان العرب. ط٣. دار صادر . بيروت.

أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي. (ت: ٣٧٠هـ) . (٢٠٠١م). تهذيب اللغة. ط١. دار إحياء التراث العربي . بيروت.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥٠هـ). (١٩٨٦م). أدب الدنيا والدين.د.ط. دار مكتبة الحياة.

النيسابوري، أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت: ٥١٨هـ). د.ت. مجمع الأمثال أبو الفضل. د.ط. دار المعرفة بيروت. لبنان.

ثانياً: المراجع.

البستاني، بطرس.(٢٠١٢م). أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. ط ١. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

حسام الدين، كريم زكي.(د.ت). القرابة دراسة أنثرو لغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية. ط١. مكتبة الأنجلو مصرية. مصر.

حسين، الإمام محمد الخضر.(١٤٣١هـ). موسوعة الأعمال الكاملة. ط١ . دار النوادر بسوريا .

حسين، حسين الحاج. (١٩٨٩م). حضارة العرب في العصر الجاهلي. مجد (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع) . بيروت.

الحوفي، أحمد.(٢٠١٦م). الحياة العربية من الشعر الجاهلي.ط٢. مكتبة نهضة مصر.

دلو، برهان الدين. (١٩٨٩م). جزيرة العرب قبل الإسلام. ط١. دار الفارابي. بيروت.

الدوري، عبد العزيز. (١٩٨٥م). التكوين التاريخي للأمة العربية. ط٢. دار المستقبل العربي. القاهرة.

شيخو، لويس. (١٨٩٠م). شعراء النصرانية. مطبعة الأباء المرسلين الشيوعين.

السليمان، صباح علي . (١٩٨٧). معجم شعراء العرب.ط١.دار غيداء.

علي، جواد. (٢٠٠٣م). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار الساقي.

اللامي، ليث عادل محسن. (٢٠٢٤م). المعاناة الفردية من الانتماء القبلي. قصيدة الحرب الجاهلية اختيارا. لارك.

References.

First: Sources.

Ibn Manzur, Muhammad ibn Makram ibn Ali Abu al-Fadl Jamal al-Din ibn Manzur al-Ansari al-Ruwaifi'i al-Ifriqi (d. 711 AH), Lisan al-Arab, Dar Sadir – Beirut, 3rd ed., 1414 AH.

Abu Mansur, Muhammad ibn Ahmad ibn al-Azhari al-Harawi (d. 370 AH), Tahdhib al-Lugha, Dar Ihya' al-Turath al-Arabi – Beirut, 1st ed., 2001.

al-Azdi, Abu Bakr Muhammad ibn al-Hasan ibn Duraid (d. 321 AH), Jamharat al-Lugha, Dar al-Ilm lil-Malayin – Beirut, 1st ed., 1987.

al-Razi, Ahmad ibn Faris ibn Zakariya al-Qazwini al-Razi (d. 395 AH), Mu'jam Maqayis al-Lugha

al-Zamakhshari, Abu al-Qasim Mahmoud ibn Amr ibn Ahmad, al-Zamakhshari Jar Allah (d. 538 AH), al-Mustaqsa fi Amthal al-Arab, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah – Beirut, 2nd ed., 1987.

Al-Mawardi, Abu al-Hasan Ali bin Muhammad bin Muhammad bin Habib al-Basri al-Baghdadi (d. 450 AH), Adab al-Dunya wa al-Din, Dar Maktabat al-Hayat, 1986.

Majd al-Din Abu Tahir Muhammad bin Yaqub al-Fayruzabadi (d. 817 AH), Al-Qamus al-Muhit, Al-Risalah Foundation for Printing, Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon, 8th ed., 2005.

Al-Naysaburi, Ahmad bin Muhammad bin Ibrahim al-Maydani (d. 518 AH), Majma' al-Amthal Abu al-Fadl, Dar al-Ma'rifah, Beirut, Lebanon, n.d.

Second: References.

Al-Bustani, Boutros, Arab Writers in the Pre-Islamic Era and Early Islam, Hindawi Foundation for Education and Culture, first edition, 2012.

Hossam El-Din, Karim Zaki, Kinship: An Anthro-Linguistic Study of Kinship Terms and Relations in Arab Culture, 1st ed., Anglo-Egyptian Library, Egypt, n.d.

Hussein, Imam Muhammad Al-Khidr, Encyclopedia of Complete Works, Dar Al-Nawader, Syria, 1st ed., 1431 AH

Hussein, Hussein Al-Hajj, Arab Civilization in the Pre-Islamic Era, Majd (University Institution for Studies, Publishing and Distribution) - Beirut, 1989.

Al-Hawfi, Ahmed, Arab Life from Pre-Islamic Poetry, Nahdet Misr Library, second edition, 2016.

Dalou, Burhan Al-Din, The Arabian Peninsula Before Islam, 1st ed., Dar Al-Farabi, Beirut, 1989.

Al-Douri, Abdul Aziz, The Historical Formation of the Arab Nation, 2nd ed., Dar Al-Mustaqbal Al-Arabi, Cairo, 1985.

Sheikho, Louis, Poets of Christianity, Al-Abaa Al-Mursalin Al-Shu'iyyin Press, 1890.

Ali, Jawad, The Detailed History of the Arabs Before Islam, Dar Al-Saqi, 2003.

Al-Lami, Laith Adel Mohsen, Individual Suffering from Tribal Affiliation, The Pre-Islamic War Poem by Choice. Lark, 2024.